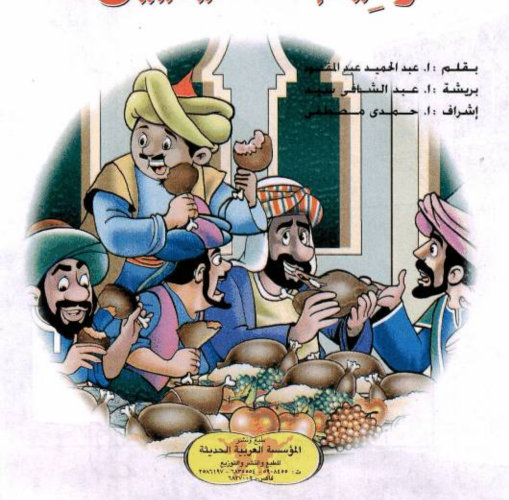
من نوادر وطرائف العرب

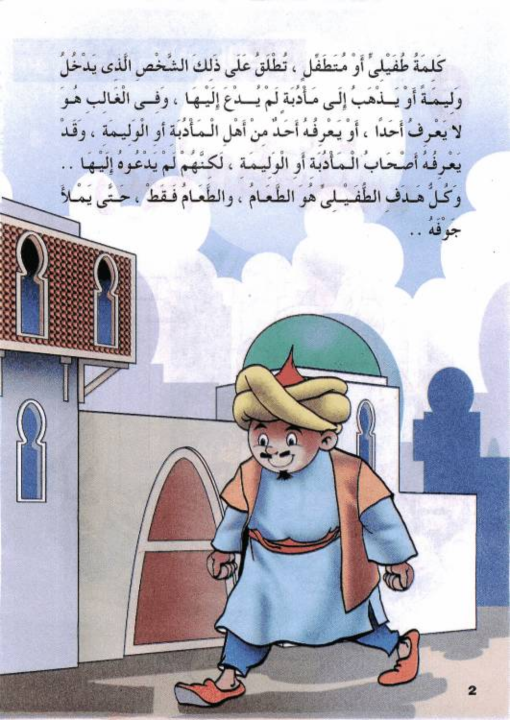
6

زَعِيمُ الطُّفَيْلِيِّينَ

بقلم : ا. عبد الحميد عبد المقصود
بريشة : ا. عبد الشافي سيد
إشراف : ا. حمدي مصطفى



طبع ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٦٨٣٤٤٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس : ٦٨٢٧٠١٩



كَلِمَةُ طُفَيْلِىٌّ أَوْ مُتَطَفِّلٍ ، تُطْلَقُ عَلَى ذَلِكَ الشَّخْصِ الَّذِى يَدْخُلُ وَلِيمَةً أَوْ يَذْهَبُ إِلَى مَأْدُبَةٍ لَمْ يُدْعَ إِلَيْهَا ، وَفِى الْغَالِبِ هُوَ لا يَعْرِفُ أَحَدًا ، أَوْ يَعْرِفُهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْمَأْدُبَةِ أَوِ الْوَلِيمَةِ ، وَقَدْ يَعْرِفُهُ أَصْحَابُ الْمَأْدُبَةِ أَوِ الْوَلِيمَةِ ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَدْعُوهُ إِلَيْهَا ..
وَكُلُّ هَدَفِ الطُّفَيْلِىِّ هُوَ الطَّعَامُ ، وَالطَّعَامُ فَقَطْ ، حَتَّى يَمْلأَ جَوْفَهُ ..

والْكَلمَةُ اشْتُقَّتْ مِن اسم رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ «طُفَيْلٌ» ويُقَالُ : إنَّها جَاءَتْ مِن اسْمِ اشْتُهر بالتَّطَفُّلِ يُدْعَى «بَنَانَ الطُّفَيْلِيّ» وهو من بخرسان ، وَقَدْ أَقَامَ فَتْرَةً من حَيَاته ببغْدَادَ مُتطَفِّلاً عَلَى مَوَائِدِ أَهْلِها ..

وتَارِيخُ الْعَرَبِ يَذْكُرُ لنا «أَشْعَبَ» باعْتِبَارِه أَشْهَرَ مُتَطَفِّلٍ فِي التَّارِيخِ ، وأَشْهَرَ مَنْ رُوِيَتْ عَنْهُ النَّوَادِرُ والطَّرَائِفُ والْحكَايَاتُ فِي التَّطَفُّلِ ..



وأَشْعَبُ هَذَا هُو أَشْعَبُ بنُ جُبَيْرٍ ، من أهْلِ الْمدينة الْمُنَوَّرَة ، وَهُوَ خَالُ الأصْمعى الأديب الْفقيه .. وَقد اشْتَهر أشْعَبُ بالظَّرْفِ وخِفَّةِ الرُّوحِ والْمرحِ ، ولَهُ حكايَاتٌ ونوادِرُ طَرِيفَةٌ فى ذَلك ..

وَلَكِنْ صارَ أشْعَبُ زَعِيمَ الطُّفَيْلِيِّين فى زمانه وحَتَّى بَعْدَ زمانه !

إنَّ لذَلكَ قصَّةً طَرِيفَةً ..

فَقَدْ جاءَهُ ابْنُهُ ذاتَ يومٍ سَعِيدًا وَهُوَ يَصِيحُ :

ـ وَلِيمَةٌ يا أبى .. وَلِيمَةٌ فِيهَا منَ الطَّعَامِ مَا لَذَّ وَطَابَ ..

وَدُونَ أَىِّ تَفْكِيرٍ أَسْرَعَ أَشْعَبُ مَعَ ابنه إلَى الدَّارِ الَّتى تُقَامُ فِيهَا الْوَلِيمَةُ ، وَكُلُّ هَمِّه أنْ يَسْبقَ الآخَرِين ، حَتَّى يَحْجِزَ لنَفْسه مَكَانًا فى صَدْرِ الْمَائدَة ، فَتكُون أصْنَافُ الطَّعَامِ الْجَيِّدَةُ فى مُتَنَاوَلِ يَده ..

وَلَكِنْ يَبْدُو أَنَّ صَاحِبَ الدَّارِ ، كَانَ ذَكِيًّا فَطِنًا إلَى حِيَلِ الطُّفَيْلِيِّينَ ، فَقَرَّرَ أنْ يَحْرِمَهُمْ منَ الْجُلُوسِ إلَى مَأْدُبَته ، الَّتى تُقَامُ فِى صَحْنِ الدَّارِ ، وَلِذَلكَ وَضَعَ سُلَّمًا خَشَبِيًّا يُؤَدِّى إلَى سَطْحِ الْمَنْزِلِ ، وَكُلَّمَا رَأَى شَخْصًا لا يَعْرِفُهُ أشَارَ إلَى السُّلَّمِ قَائلاً :



ـ اصْعَدْ يَا ضَيْفِى إِلَى حَيْثُ تُقَامُ الْوَلِيمَةُ ..

وَهَكَذَا صَعِدَ أَشْعَبُ وَابْنُهُ إِلَى سَطْحِ الدَّارِ ، وَتَوَالَى صُعُودُ بَقِيَّةِ الطُّفَيْلِيِّينَ إِلَى السَّطْحِ .. ثُمَّ رَفَعَ الرَّجُلُ السُّلَّمَ ، وَوُضِعَتِ الْمَوَائِدُ لِلْمَدْعُوِينَ ، مِنْ أَقَارِبِ الْعَرِيسِ وَالْعَرُوسِ ، فِى صَحْنِ الدَّارِ وَعَلَيْهَا مَا لَذَّ وَطَابَ مِنْ أَصْنَافِ اللُّحُومِ وَالأَسْمَاكِ وَالْحَلْوَى وَالْفَاكِهَةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الأَصْنَافِ ..

وَوَجَدَ أَشْعَبُ نَفْسَهُ وَمَعَهُ ابْنُهُ وَمَجْمُوعَةُ الْمُتَطَفِّلِينَ مَحْبُوسِينَ فَوْقَ السَّطْحِ ، وَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَى الطَّعَامِ وَلا يَسْتَطِيعُونَ الْوُصُولَ إِلَيْهِ بِسَبَبِ ارْتِفَاعِ السَّطْحِ ، فَتَمَلَّكَهُمُ الْغَيْظُ ، وَقَالَ أَحَدُهُمْ :

ـ وَاللَّهِ مَا لاقَيْنَا مِنَ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ مِثْلَ مَا لاقَيْنَا الْيَوْمَ عَلَى يَدَيْ ذَلِكَ الْمَاكِرِ ، صَاحِبِ الْوَلِيمَةِ ..

وَقَالَ آخَرُ :

ـ لَقَدْ حَبَسَنَا هُنَا مِثْلَ الدَّجَاجِ ، فَلا هُوَ تَرَكَنَا نُشَارِكُ فِي طَعَامِهِ ، وَلا هُوَ تَرَكَنَا نَتَطَفَّلُ عَلَى مَأْدُبَةِ غَيْرِهِ ..

فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ أَشْعَبُ ، وَقَالَ :

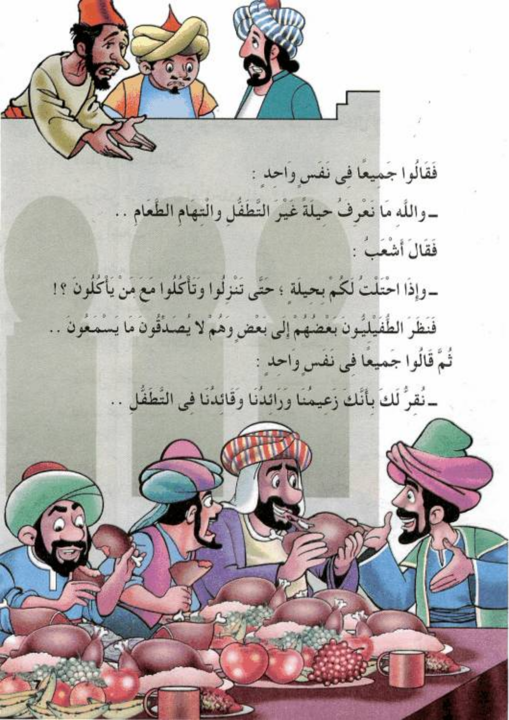
ـ مَا هِيَ صِنَاعَتُكُمْ فِي الْحَيَاةِ يَا إِخْوَانُ ؟!

فَقَالُوا جَمِيعًا فِي نَفَسٍ وَاحِدٍ :

ـ نَحْنُ جَمِيعًا طُفَيْلِيُّونَ ، وَلا عَمَلَ لَنَا إِلاَّ التَّطَفُّلُ ..

فَقَالَ أَشْعَبُ :

ـ خَيَّبَكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا مِنْ طُفَيْلِيِّينَ .. أَلَيْسَ عِنْدَ أَحَدِكُمْ حِيلَةٌ لِلْخُرُوجِ مِنْ هَذَا الْمَأْزِقِ الَّذِي وَقَعْنَا فِيهِ ، وَحَبَسَنَا هَا هُنَا كَالْجِرْذَانِ فِي الْمَصْيَدَةِ ؟!



فَقَالُوا جَمِيعًا فِى نَفَسٍ وَاحِدٍ :

ـ واللَّهِ مَا نَعْرِفُ حِيلَةً غَيْرَ التَّطَفُّلِ والْتِهَامِ الطَّعَامِ ..

فَقَالَ أَشْعَبُ :

ـ وإِذَا احْتَلْتُ لَكُمْ بِحِيلَةٍ ؛ حَتَّى تَنْزِلُوا وَتَأْكُلُوا مَعَ مَنْ يَأْكُلُونَ ؟!

فَنَظَرَ الطُّفَيْلِيُّونَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ وَهُمْ لا يُصَدِّقُونَ مَا يَسْمَعُونَ ..

ثُمَّ قَالُوا جَمِيعًا فِى نَفَسٍ وَاحِدٍ :

ـ نُقِرُّ لَكَ بِأَنَّكَ زَعِيمُنَا وَرَائِدُنَا وَقَائِدُنَا فِى التَّطَفُّلِ ..



فَقَالَ أَشْعَبُ :

ـ طَالَما أَنَّكُم تُقِرُّونَ بِزَعَامَتِى لَكُمْ ، فَسَوْفَ أَحْتَالُ لإِطْعَامِكُمْ ..

فَنَظَرُوا إِلَيْه قَائِلِينَ :

ـ وَلَكِنْ مَنْ تَكُونُ أَصْلَحَكَ اللَّهُ ؟!

فَقَالَ أَشْعَبُ :

ـ أَنَا أَشْعَبُ أَيُّهَا الْحَمْقَى ..

فَقَالُوا جَمِيعًا :

ـ قَدْ أَقْرَرْنَا بِزَعَامَتِكَ ، حَتَّى تَقْبَلَ أَنْ تَحْتَالَ لَنَا ..

فَأَطَلَّ أَشْعَبُ إِلَى صَحْنِ الدَّارِ ، حَيْثُ صَاحِبُ الدَّارِ وَضُيُوفُهُ يَأْكُلُونَ غَيْرَ عَابِئِينَ بِالطُّفَيْلِيِّينَ ، وَصَاحَ :



ـ يَا صَاحِبَ الدَّارِ ..

فَرَفَعَ صَاحِبُ الدَّارِ نَظَرَهُ إِلَيْهِ قَائِلاً :

ـ مَا بِكَ يَا هَذَا ؟!

فَقَالَ أَشْعَبُ :

ـ أَيُّهُمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ ، أَنْ تَصْعَدَ إِلَيْنَا بِمَائِدَةٍ كَبِيرَةٍ عَامِرَةٍ فَنَأْكُلَ وَنَنْزِلَ بِسَلَامٍ ، أَوْ أَرْمِيَ بِنَفْسِي مِنْ هَذَا الْعُلُوِّ الشَّاهِقِ ، فَأَمُوتَ وَيَخْرُجَ مِنْ دَارِكَ قَتِيلٌ وَيَتَحَوَّلَ عُرْسُكَ وَفَرَحُكَ إِلَى مَأْتَمٍ ؟

وأَخَذَ أَشْعَبُ يَتَصَنَّعُ أَنَّهُ عَلَى وَشْكِ أَنْ يُلْقِيَ نَفْسَهُ ، فَفَزِعَ صَاحِبُ الدَّارِ ، وَأَخَذَ يَرْجُوهُ أَلاَّ يَفْعَلَ ؛ حَتَّى لا يُفْسِدَ الْفَرَحَ ..

وَلَمْ تَمْضِ دَقَائِقُ ، حَتَّى أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ صَاحِبُ الدَّارِ مَائِدَةً كَبِيرَةً عَلَيْهَا كُلُّ أَطَايِبِ الطَّعَامِ ..

وَانْقَضَّ فَرِيقُ الطُّفَيْلِيِّينَ عَلَى الطَّعَامِ ، كَالْوُحُوشِ الْكَاسِرَةِ ..

وَأَخَذَ ابْنُ أَشْعَبَ يَأْكُلُ بِضْعَ لُقَيْمَاتٍ ، ثُمَّ يَشْرَبُ قَلِيلاً مِنَ الْمَاءِ ..

انْتَحَى أَشْعَبُ بِابْنِهِ جَانِبًا ، وَلَطَمَهُ عَلَى وَجْهِهِ ، قَائِلاً :

ـ لَوْ جَعَلْتَ مَكَانَ الْمَاءِ الَّذِى شَرِبْتَهُ لُقَيْمَاتٍ لَكَانَ أَفْضَلَ ..

فَقَالَ الابْنُ :

ـ إِنَّ الْمَاءَ يُوَسِّعُ مَكَانًا ، فَآكُلُ أَكْثَرَ يَا أَبِى ..

فَعَادَ أَشْعَبُ إِلَى صَفْعِ ابْنِهِ مَرَّةً أُخْرَى وَهُوَ يَقُولُ :

ـ أَيُّهَا اللَّئِيمُ ، لِمَ لَمْ تُنَبِّهْنِى إِلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ ، قَبْلَ جُلُوسِنَا إِلَى الطَّعَامِ ؟!

وَهَكَذَا صَارَ أَشْعَبُ زَعِيمَ الطُّفَيْلِيِّينَ بِلا مُنَافِسٍ ..

وَكَانَ نَهَمُ أَشْعَبَ ، وَعِشْقُهُ لِلطَّعَامِ عَجَبًا ، فَلَمْ يَتْرُكْ

وَلِيمَةٌ أَوْ مَأْدُبَةٌ إِلاَّ أَكَلَ فِيهَا ، طَالَمَا واتَتْهُ الْفُرْصَةُ ، فَإِنْ لَمْ تُواتِهِ احْتَالَ لِذَلِكَ ..

وَلَكِنْ جَاءَ يَوْمٌ عَلَى أَشْعَبَ ضَاقَ بِهِ الْحَالُ ، وَسُدَّتْ أَبْوَابُ الْوَلائِمِ فِي وَجْهِهِ ، فَلَمْ يَعُدْ يَجِدُ أَحَدًا يَدْعُوهُ إِلَى وَلِيمَةٍ ، أَوْ يَدْعُو نَفْسَهُ هُوَ إِلَيْهَا دُونَ اسْتِئْذَانٍ ، بَعْدَ أَنْ عَرَفَ النَّاسُ حِيَلَهُ وَأَلاعِيبَهُ فِي التَّطَفُّلِ وَاقْتِحَامِ وَلائِمِهِمْ ..

وَلِذَلِكَ قَرَّرَ أَشْعَبُ أَنْ يَتْرُكَ الْمَدِينَةَ الْمُنَوَّرَةَ ، وَيُسَافِرَ إِلَى



مَكَّةَ مَعَ صَدِيقٍ لَهُ مُتَطَفِّلٍ مِثْله ، عَسَى أَنْ يَجِدَا فِيهَا وَلائِمَ عَامِرَةً لَدَى أُنَاسٍ لا يَعْرِفُونَهُمَا .. وَإِلَيْكُمْ مَا حَدَثَ ..

أَعَدَّ أَشْعَبُ وَرَفِيقُهُ الْعُدَّةَ لِلسَّفَرِ مَعَ قَافِلَةٍ مُتَّجِهَةٍ إِلَى مَكَّةَ ، وَتَصَادَفَ أَنْ كَانَ مَوْعِدُ تَحَرُّكِ الْقَافِلَةِ وَقْتَ صَلاةِ الظُّهْرِ ، فَتَوَجَّهَ أَشْعَبُ إِلَى الْمَسْجِدِ لأَدَاءِ الصَّلاةِ ، عَلَى أَنْ يَلْحَقَ بِالْقَافِلَةِ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَحَاوَلَ رَفِيقُهُ أَنْ يَجْعَلَهُ يَرْحَلُ مَعَ الْقَافِلَةِ ، عَلَى أَنْ يُصَلِّيَ الظُّهْرَ فِي الطَّرِيقِ ، لَكِنَّ أَشْعَبَ قَالَ لَهُ :

ـ يَا أَحْمَقُ يَجِبُ أَنْ نُصَلِّيَ وَنَدْعُوَ اللَّهَ ، فَيَرْزُقَنَا بِمُغَفَّلِينَ نَتَطَفَّلُ عَلَى وَلائِمِهِمْ ..

فَلَمْ يُوَافِقْهُ صَدِيقُهُ ، وَظَلَّ كُلٌّ مِنْهُمَا مُتَمَسِّكًا بِرَأْيِهِ .. وَفِي النِّهَايَةِ رَحَلَ الصَّدِيقُ مَعَ الْقَافِلَةِ ، وَدَخَلَ أَشْعَبُ إِلَى الْمَسْجِدِ لِيُصَلِّيَ ، وَكَانَتْ صَلاةُ الْجَمَاعَةِ قَدْ بَدَأَتْ ، وَوَجَدَ أَشْعَبُ أَنَّ جَمِيعَ الصُّفُوفِ مُكْتَمِلَةٌ ، وَلَمْ يَرْضَ أَنْ يَقِفَ وَحْدَهُ فِي صَفٍّ خَلْفَ الصُّفُوفِ ، فَجَذَبَ أَحَدَ الْمُصَلِّينَ مِنَ الصَّفِّ الأَخِيرِ ؛ لِيَقِفَ بِجِوَارِهِ فِي الصَّفِّ ، فَلَمَّا تَأَخَّرَ الرَّجُلُ وَوَقَفَ بِجِوَارِ أَشْعَبَ ، رَأَى أَشْعَبُ مَكَانَ الرَّجُلِ فِي الصَّفِّ خَالِيًا ، فَتَقَدَّمَ وَوَقَفَ مَكَانَهُ وَتَرَكَ الرَّجُلَ وَاقِفًا وَحْدَهُ ..

وَمِنْ سُوءِ حَظِّ أَشْعَبَ أَنْ كَانَ الإِمَامُ رَجُلاً بَطِيئًا ثَقِيلَ الْحَرَكَةِ ،

فَقرأ الْفَاتحَة عَلَى مهل ، وَأَطَالَ الْقراءَة ثُمَّ قرأ سُورَةً طَويلَةً من سُورِ الْقُرآن الْكَرِيم فِي سرِّه ، وأَطَالَ فِي الْقرَاءَة والتَّجْويد ، ثُمَّ انْحَنى للرُّكُوع ، وأَطَالَ فِي التَّسْبِيح بنَوْعٍ من الْخُشُوع لَمْ يَعْهَدْهُ أَشْعَبُ من قَبْلُ .. ثُمَّ رَفع رأْسَهُ ونَهَض من الرُّكُوع ، قَائلاً : «سمعَ اللَّــهُ لـمَنْ حَمدَهُ» ، واستَمرَّ وَاقفًا حتَّى ظَنَّ أَشْعَبُ أَنَّهُ نَام فِي مكَانه ، وأَنَّهُ لَنْ يَسْجُدَ أَبَدًا ، وأَخيرًا كَبَّر

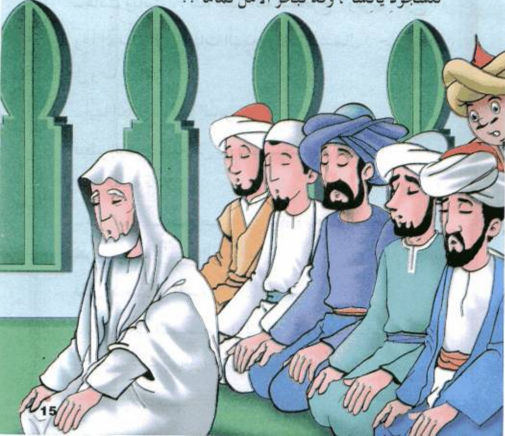


الإِمَامُ وسَجَدَ ، وأَطَالَ فِي سُجُودِهِ بِصُورَةٍ لَمْ يَعْهَدْهَا أَشْعَبُ مِنْ قَبْلُ ..

كُلُّ ذَلِكَ وأَشْعَبُ يَتَحَرَّقُ عَلَى نَارِ الصَّبْرِ ، ويَتَقَلَّبُ عَلَى جَمْرِ الْغَيْظِ ، لَكِنَّهُ تَذَكَّرَ أَنَّهُ فِي الصَّلاةِ ، فَكَظَمَ غَيْظَهُ فِي صَدْرِهِ ، وأَذْعَنَ لِلْخُشُوعِ ، وقَدْ تَمَلَّكَهُ الْيَأْسُ مِنَ اللِّحَاقِ بِالْقَافِلَةِ ، فَهُوَ لَمْ يَزَلْ فِي الرَّكْعَةِ الأُولَى ..



وَأخَذَ يَلْعَنُ نفْسَهُ ؛ لأَنَّهُ ترَكَ مَكَانَهُ فى الصَّفِّ الأَخيرِ وتقدَّمَ إلَى الأَمَامِ ، فلَوْ أنَّهُ كَانَ يقفُ وحْدَهُ الآنَ خَلْفَ الصُّفُوفِ لَتمكَّنَ منَ الْفرارِ دُونَ أنْ يَلْحَظَهُ أحَدٌ .. ولَكنَّ الأمَلَ عاوَدَهُ فى أثْنَاءِ السَّجْدَةِ الثَّانيَةِ منَ الرَّكْعَةِ الأُولَى ، والَّتى بدَتْ لَهُ كأَنَّها دَهْرٌ طَويلٌ ، فرَفَعَ رَأْسَهُ ونَظَرَ خَلْفَهُ ، فوَجَدَ الصَّفَّ الَّذى ترَكَهُ قدْ تَكامَلَ تَمَامًا ، ولَيْسَ فيه فُرْجَةٌ ليَهْرُبَ منْهَا ، ولذَلكَ عادَ للسُّجُودِ يَائسًا ، وقَدْ تَبَخَّرَ الأَمَلُ تمَامًا ..



وَأَخيراً كَبَّرَ الإمامُ ، وَنَهض وَاقفًا لأداء الرَّكْعَة الثَّانيَة ..

وَمَا حَدَثَ فِي الرَّكعَة الأُولَى حَدَثَ أطْوَلُ منْهُ فِي الرَّكْعَة الثَّانيَة ، وَكَأَنَّ الإمَامَ كَانَ يَتَعَمَّدُ إغَاظَةَ أَشْعَبَ ، وَتَعْطيلَهُ عَن اللّحاق بالْقَافلَة .. هكَذا ظَنَّ أَشْعَبُ فِي نَفْسه ، لَكنَّهُ احْتَمَلَ بِصَبْرٍ مُنْقَطعِ النَّظيرِ ، حَتَّى انْتَهَى الإمَامُ منْ إتْمَام الرَّكَعَات الأَرْبع ، وَجلَسَ لقرَاءَة التَّشَهُّد الأَخير ، فَقَالَ أَشْعَبُ فِي نَفْسه :

ـ هَانَتْ وَبَانَتْ .. لَقَدْ سَهَّلَ اللَّهُ الْمَخْرَج ، وَقَرُبَ الْفَرَجُ ..

وَمَا إنْ سَلَّمَ الإمَامُ ذَاتَ الْيَمين وَذَاتَ الشِّمَال ، حَتَّى نَهَض رَجُلٌ وَصَاحَ قَائلاً :

ـ أَيُّهَا النَّاسُ .. أَيُّهَا النَّاسُ ..

فَنَظَرَ إلَيْه جَميعُ مَنْ فِي الْمَسْجد ، وَأَنْصَتُوا ، وَوَاصَلَ الرَّجُلُ حَديثَهُ قَائلاً :

ـ مَنْ كَانَ فيكُمْ يُحبُّ النَّبيَّ ﷺ وَيُحبُّ أَصْحَابَهُ ﷺ ، فَلْيُعرْني سَمْعَهُ وَلْيُصْغ إلَيَّ سَاعَةً ..

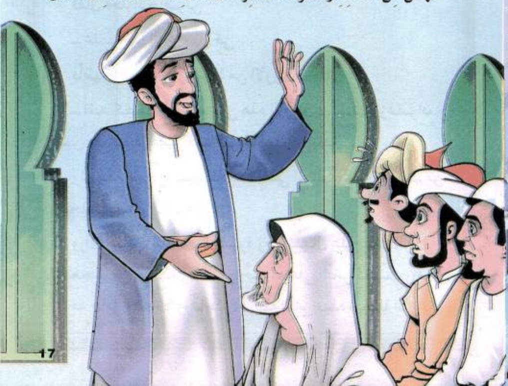
فَقَالَ أَشْعَبُ فِي نَفْسه :

ـ لَوْ غَادَرْتُ الْمَسْجدَ الآنَ فَلَنْ أَكُونَ مُحبًّا للنَّبيِّ ﷺ ، وَسَيَتَّهمُني ذَلكَ الْوَغْدُ بذَلكَ علانيَةً أَمَامَ النَّاس ..

وَلِذَلِكَ لَمْ يَرَ أَشْعَبُ أَمَامَهُ إِلاَّ أَنْ يَظَلَّ جَالِسًا فِى مَكَانِهِ - كَمَا فَعَلَ الآخَرُونَ - وَوَاصَلَ الرَّجُلُ حَدِيثَهُ قَائِلاً :

- أَيُّهَا النَّاسُ خَلِيقٌ بِى أَلاَّ أَقُولَ غَيْرَ الْحَقِّ ، وَلا أَشْهَدَ إِلاَّ بِالصِّدْقِ .. لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِبِشَارَةٍ مِنْ نَبِيِّكُمْ ﷺ ، لَكِنِّى لَنْ أَقُولَهَا لَكُمْ حَتَّى يُطَهِّرَ اللَّهُ هَذَا الْمَسْجِدَ مِنْ كُلِّ نَذْلٍ يَجْحَدُ نُبُوَّةَ النَّبِىِّ ﷺ ..

فَرَبَطَ هَذَا الْقَوْلُ أَشْعَبَ بِالْقُيُودِ ، وَشَدَّهُ بِالْحِبَالِ ، فَلَوْ أَنَّهُ نَهَضَ مِنْ مَكَانِهِ وَتَحَرَّكَ مُغَادِرًا الْمَسْجِدَ ، لَكَانَ ذَلِكَ النَّذْلَ



الَّذِى يَجْحَدُ نُبُوَّةَ النَّبِىِّ ﷺ ، وَلَنَالَهُ مِنْ أَذَى النَّاسِ مَا لا تُحْمَدُ عُقْبَاهُ عَلَى أَمْرٍ هُوَ مِنْهُ بَرَاءٌ ..

وَلِذَلِكَ بَقِىَ أَشْعَبُ سَاكِنًا فِى مَكَانِه ، وَهُوَ يَلْعَنُ نَفْسَهُ ؛ لأَنَّهُ لَمْ يَسْتَمِعْ إِلَى نَصِيحَةِ صَدِيقِهِ .. أَمَّا الرَّجُلُ ، فَقَدِ اسْتَمَرَّ قَائِلاً :

ـ رَأَيْتُ النَّبِىَّ ﷺ فِى الْمَنَامِ .. وَقَدْ قَالَ ﷺ : « مَنْ رَآنِى فِى الْمَنَامِ ، فَقَدْ رَآنِى حَقًّا ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لا يَتَمَثَّلُ بِى » وَقَدْ عَلَّمَنِى ﷺ دُعَاءً ، وَأَوْصَانِى أَنْ أُعَلِّمَهُ لَكُمْ ..

فَقَالَ أَحَدُ الْحَاضِرِينَ :

ـ عَلِّمْنَا هَذَا الدُّعَاءَ يَا أَخِى ..

فَأَظْهَرَ الرَّجُلُ رِزْمَةً كَبِيرَةً مِنَ الأَوْرَاقِ ، وَقَالَ :

ـ لَقَدْ كَتَبْتُ الدُّعَاءَ عَلَى هَذِهِ الأَوْرَاقِ بِمِسْكٍ وَزَعْفَرَانٍ ، فَمَنْ دَفَعَ لِى دِرْهَمَيْنِ ثَمَنًا لِلْوَرَقَةِ أَعْطَيْتُهُ إِيَّاهَا ..

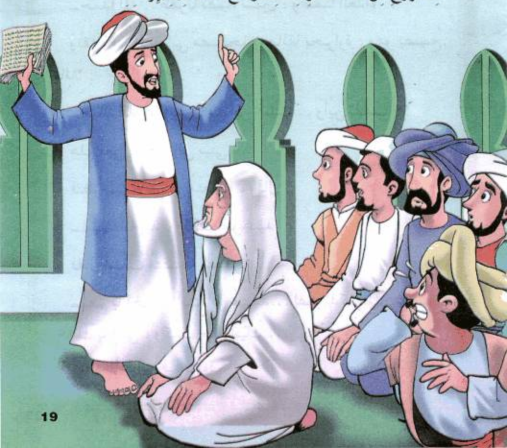
وَلَمْ يَكَدِ الرَّجُلُ يُتَمِّمُ كَلامَهُ ، حَتَّى انْهَالَتْ عَلَيْهِ الدَّرَاهِمُ مِنَ الْحَاضِرِينَ فِى الْمَسْجِدِ ..

وَرَأَى أَشْعَبُ الدَّرَاهِمَ الْكَثِيرَةَ وَهِىَ تَنْهَالُ عَلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ ، فَتَعَجَّبَ مِنْ حُنْكَتِهِ وَذَكَائِهِ وَاحْتِيَالِهِ عَلَى النَّاسِ لِكَسْبِ رِزْقِهِ ، وَأَخَذَ يَتَأَمَّلُ فَصَاحَتَهُ وَوَقَاحَتَهُ ، وَرَبْطَهُ النَّاسَ بِهَذِهِ الْحِيلَةِ الْبَارِعَةِ ،

فَظَلَّ يلْعَنُهُ فى سرِّه .. وَغَادَرَ الْمَسْجدَ وَهُوَ يقُولُ لنَفْسه :

ـ كَانَ أوْلَى بنَا نَحْنُ الطُّفَيْليِّينَ أنْ نَحْتَالَ بمثْلِ هذه الْحيَلِ لكَسْب أرْزَاقنَا ، بَدَلاً من انْتظَارِ الْوَلائمِ والْحَفَلاتِ للتَّطَفُّلِ عَلَيْهَا ..

وبالطَّبْع لَمْ يَلْحَقْ أشْعَبُ بالْقَافِلَة الْمُسَافِرَة إلَى مَكَّةَ ، فَوَقَفَ حَزِينًا مَهْمُومًا ، وَهُوَ لا يَدْرى مَاذَا يَفْعَلُ ، ولا كَيْفَ يَتَصَرَّفُ للْخُرُوجِ منْ هَذَا الْمَأْزَق الَّذى وَضَعَ نَفْسَهُ فيه بإرادته ..



وبدأ أشعبُ يشعُرُ بالجُوعِ فلم يدرِ ماذا يفعلُ ، وكيف يحتالُ للعثورِ على طعامه ..

وبينما أشعبُ واقفٌ يُقلِّبُ الأُمورَ على وُجُوهها ، رأى رجلاً أعرابيًّا من أعرابِ الصَّحْراء يسُوقُ حمارهُ أمامهُ ، وقد ارتسمتْ على وجهه أماراتُ السَّذاجة ، وعلاماتُ الغفلة ، فتبسَّم أشعبُ وقال في نفسه :

ـ حمدًا للَّه .. ظفرنا بصيدٍ سمينٍ ، وضمنَّا الغداء ..

وتقدَّم من الأعرابيُّ مُصافحًا ومُعانقًا بحرارةٍ ، وهُو يصيحُ قائلاً :

ـ حيَّاك اللَّهُ أبا زيدٍ .. من أين أقبلتَ .. وأين تذهبُ ؟!

هلُمَّ معي يا أخي إلى بيتي ..

فنظرَ إليه الأعرابيُّ مُتعجِّبًا ، وقال :

ـ لستُ أبا زيدٍ ، ولكنِّي أبو عُبيدٍ ..

فقال أشعبُ مُتصنِّعًا التَّذكُّرَ :

ـ نعم يا أخي .. أنتَ أبو عُبيدٍ .. لقد تذكَّرتُك .. كيف حالُك يا أخي ، وكيف حالُ أبيك ..

فقال الأعرابيُّ في براءةٍ :

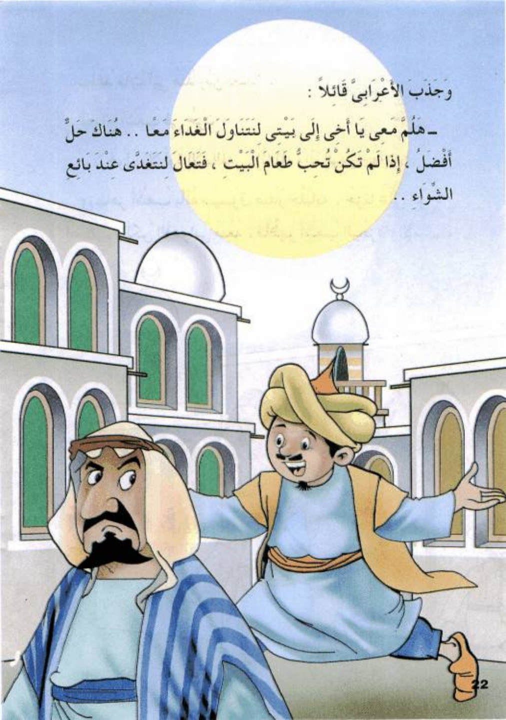
ـ لَقَدْ مَاتَ أَبى مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ ..

فَصَاحَ أَشْعَبُ فِى حُزْنٍ :

ـ لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بِاللَّهِ .. إنَّا لِلَّهِ وإنَّا إلَيْهِ رَاجِعُونَ ..

وَتَظَاهَرَ أَشْعَبُ بِأَنَّهُ سَيُمَزِّقُ صَدْرَ جِلْبَابِه ، حُزْنًا عَلَى الرَّاحِلِ الْعَظِيمِ ، لَكِنَّ الأَعْرَابِىَّ مَنَعَهُ ، فَأَظْهَرَ أَشْعَبُ الْحُزْنَ والأَسَفَ ،





وَجَذَبَ الأعْرَابِىَّ قَائلاً :

ـ هَلُمَّ معى يَا أخى إلَى بَيْتِى لنَتَنَاوَلَ الْغدَاءَ معًا .. هُنَاكَ حَلٌّ أفْضَلُ ، إذا لَمْ تَكُنْ تُحبُّ طَعَامَ الْبَيْت ، فَتَعَالَ لنَتَغدّى عنْدَ بَائع الشِّوَاءِ ..

وأَخَذَ أَشْعَبُ الأَعْرابِيَّ إلَى مَطْعَمٍ ، حيثُ يُشْوى اللَّحْمُ ، ورائحةُ الشّواءِ الشّهيّةُ تملأُ المكانَ ، فطلبَ لحمًا لهُ وللأعرابيِّ وجلسا يأكُلان ، حتَّى أُصيبَ أشعبُ بالتُّخمةِ من كثْرَةِ ما أكلَ من اللَّحمِ ، وقالَ أشعبُ في دهاءٍ :

ـ قدْ طعمْنا حتَّى شبعْنا ، وما أحوجَنا إلَى ماءٍ مُثلَّجٍ حتَّى نُطفئَ نيرانَ هذا الطَّعامِ الدَّسِمِ ..

فوافقهُ الأعرابيُّ على رأيِه ، فقالَ لهُ أشعبُ :



ـ اجلسْ يَا أَبَا عُبَيْدٍ هُنا ولا تَبْرحْ مكَانَكَ حَتَّى آتِيكَ بماءٍ مُثلَّجٍ .. وغَادرَ أَشْعَبُ الْمكَانَ غيرَ مُصدِّقٍ بالنَّجاة ، تاركًا الأَعْرَابِيَّ الْمسْكِينَ يَنْتَظِرُ ، حَتَّى مَضَى النَّهارُ ، فَلَمَّا نَفِدَ صَبْرُ الأَعْرَابِيِّ ، غادرَ الْمَطْعَمَ ، لِيَرْكَبَ حِمَارَهُ ، فأَمْسَكَ به صَاحِبُ الْمَطْعَمِ قائلاً :

ـ أَيْنَ ثَمَنُ الطَّعَامِ ؟

فَقَالَ الأَعْرَابِيُّ في بَرَاءَةٍ :

ـ لَقَدْ أَكَلْتُ ضَيْفًا ..

فَانْهَالَ عَلَيْهِ صَاحِبُ الْمَطْعَمِ ضَرْبًا وَلَكْمًا ، وَلَمْ يَتْرُكْهُ حَتَّى تَقَاضَى مِنْهُ ثَمَنَ اللَّحْمِ .. فَقَالَ الأَعْرَابِيُّ :

ـ لَعَنَ اللَّهُ ذَلِكَ الْمُحْتَالَ ، لَقَدْ قُلْتُ لَهُ أَنَا أَبُو عُبَيْدٍ ، وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَى أَنَّنِي أَبُو زَيْدٍ ..

(تَمَّتْ)

رقم الإيداع : ١٠٥٠٦ / ٢٠٠٣

الترقيم الدولى : ٢- ٩٤١ - ٢٦٦ - ٩٧٧